Derna University Journal of Humanities and Social Sciences, Vol. 4, Issue 7, March 2026.

مجلة جامعة درنة للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Derna University Journal of Humanities and Social Sciences (DUJHSS)
Source Homepage: https://dujhss.uod.edu.ly
P-ISSN: 2959-6475 | E-ISSN: 2959-6483 | Impact Factor: 0. 84
https://doi.org/10.58987/dujhss.v4i7.230

جماليات البلدة القديمة في طولكرم التاريخية وأثر التحولات العمرانية على الهوية البصرية

د. عبد الفتاح احمد عليّ الكم
مدير مكتب وزارة الثقافة - طولكرم، وزارة الثقافة، فلسطين
montaser.1447@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2025/08/21 ؛ تاريخ القبول: 2026/01/07 ؛ تاريخ النشر: 2026/03/02

الكلمات المفتاحية:
مراكز المدن التاريخية، التكوين البصري، التوثيق الحضري، الحفاظ الحضري.

المستخلص

تزخر البلدة القديمة في مراكز المدن الفلسطينية بتراث ثقافي فريد ومتنوع بأشكال فنية وجمالية ووظيفية تعكس حضارة عريقة لا تزال تحتفظ بأروع تفاصيلها العمرانية والمعمارية، تعكس حضارة وفكر الأجيال التي بنت وعاشت وأسست الحضارات، يهدف البحث الحفاظ على هذا الإرث الحضاري والذي يعتبر مرآة لحضارتهم وتراثهم الحضاري، ويحمل فكرا وصورة تحكي للأجيال الحالية والقادمة، ويتناول البحث من خلال المنهج التحليلي والنظري إلى توعية أفراد المجتمع المحلي وزيادة معرفتهم بتراث بلدهم وتاريخها والظروف السياسية المحيطة بها، ولبذل كل الجهود لحماية هذا التراث والحفاظ عليه أثناء تطورها العمراني، في ظل ظهور المشكلات التي تعصف بمراكز المدن والتشوه البصري وظهور بعض المباني الغريبة عن المحيط، لذلك تعد عملية التوثيق للمباني بشكلها وجمالياتها ونسيجها العمراني ضرورة حضارية لاستدامتها والحفاظ على شكلها الثقافي، وإلهام ومشاركة وتحفيز الأجيال القادمة في الحفاظ عليها وإدراك القيم الحضارية والجمالية وتفعيل الحياة الحضرية.

The Aesthetics of the Old City of Tulkarm and the Impact of Urban Transformations on Visual Identity

Dr. Abdel Fattah A. A. Al-Kam
Director of the Ministry of Culture Office - Tulkarm Palestinian Ministry of Culture

Received :21/08/2025 Accepted: 07/01/2026 Published: 02/03/2026

Abstract

The Old City in the centers of Palestinian cities is rich in a unique and diverse cultural heritage in artistic, aesthetic and functional forms that reflect an ancient civilization that still retains its most wonderful architectural and architectural details, reflecting the civilization and thought of the generations that built, lived and founded civilizations, the research aims to preserve this civilizational heritage, which is considered a mirror of their civilization and cultural heritage, and carries a thought and image that tells the current and future generations, and the research deals with the research through the analytical and theoretical method to raise the awareness of local community members and increase their knowledge In light of the emergence of problems plaguing city centers, visual distortion and the appearance of some buildings that are alien to the ocean, the process of documenting buildings with their shape, aesthetics and urban fabric is a civilizational necessity to sustain them and preserve their cultural form, and to inspire, participate and motivate future generations in preserving them, realizing civilizational and aesthetic values and activating urban life.

Keywords

Historic city centers, visual composition, urban documentation, urban preservation.

© The Author(s) 2026. This article is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License (CC BY-NC 4)

مقدمة:

فلسطين أرض غنية بكل ما هو جميل، ذات التاريخ الزاخر بكل ما يحمله من عبق الماضي وجمال وأصالة التقاليد، وهي مهد الديانات السماوية الثلاث، أنها نقطة التقاء للثقافات المتنوعة منذ عصور ما قبل التاريخ، المباني التاريخية وسط مدينة طولكرم في معظمها يعود للمدة العثمانية و – تحديدا – مع نهاية الحكم العثماني للمنطقة أي عندما أصبحت عاصمة لقضاء بني صعب عام 1892م، وهي محطة مهمة عبر التاريخ على طول الطريق التجاري أو العسكري، نتيجة موقعها بين السهل الساحلي والجبال وسط فلسطين، مما أسهم في رفع شأنها وتطورها حيث أثر هذا العمران على شكل مدينة طولكرم وعلى تخطيطها وأصبحت المباني الموجودة معالم معمارية تعبر عن الهوية والثقافة للمدينة هذه المباني حملت رسالة وأوصلتها لنا عن الحياة التي كان يعيشها الأسلاف ويعكس نوعية الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية لذلك وجب علينا أن نحافظ على هذا الإرث وننقله للأجيال القادمة من خلال الحفاظ غلى هذه المباني فيزيائيا والقيام بعملية توثيق لهذه المباني علميا.

تعتبر مراكز المدن قطعة نادرة من الفن المعماري، بمفرداتها وعناصرها التقليدية وأسلوبها المعماري وتشكيلاتها الزخرفية التي تزين المباني التاريخية المتميزة بعناصرها المعمارية والإنشائية، وأصالة المبنى من خلال أصالة المواد وتقنيات البناء وطابعها التقليدي، من العناصر المعمارية الفريدة التي تمتلكها المباني، مثل البلاط التقليدي، والخزائن، والأبواب الخشبية، والأقواس وغيرها، وعناصر مثل التماثيل الفخارية، والزجاج الملون، والأعمدة ذات التيجان المزخرفة.

مشكلة الدراسة:

ما تشهده مراكز المدن من تغير متسارع في شكلها وبنيتها الحضرية عمرانيا ومعماريا، وظهور مبان جديدة تحمل نمط وطراز الحداثة، بعيدا عن هوية المكان بارتفاعات مختلفة وطوابق متعددة لا تنسجم مع محيطها، خامات جديده والواح زجاجية ولافتات بأشكال والوان ومواد مختلفة بعيدة عن هوية المكان، ما يخلف هذا التغير من أضرار – بشكل مركز – المدينة وفقدانها لهويتها وجماليتها ونسيجها الاجتماعي لا تنسجم مع طابع المنطقة، لذلك وجب علينا وقف هذا التدهور والتشويه للصورة الذهنية والهوية المعمارية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في سدها فجوة معرفية كبيرة فيما يتعلق بتوثيق الواقع البصري والجمالي في قلب مدينة طولكرم، ولا سيما في مركزها التاريخي (قصبة)، الذي يضم أقدم مبانيها وأكثرها أهمية تاريخية، تفتقر المدينة إلى دراسات شاملة تجمع هذه المعالم المعمارية ضمن إ طار واحد، خاصةً في ظل التآكل التدريجي واختفاء التفاصيل المعمارية التي تعاني منها المباني القديمة، بالإضافة إلى هدم بعضها، كما هو الحال في محيط قهوة الكرمول، واستبدالها بمبانٍ حديثة تمحو هويتها الأصيلة. لذا، تَعد هذه الدراسة مرجعا توثيقيا هاما، إذ ترصد الوضع الراهن للعناصر البصرية والجمالية، وتسلّط الضوء على التحديات التي

تواجهها، وتوفّر أساسا يمكن للبلدية والجهات المعنية الاعتماد عليه لوضع استراتيجيات للحفاظ على النسيج العمراني وتطويره بما يحترم الطابع الفريد والذاكرة التاريخية للمكان.

فرضية الدراسة:

افتقار المنطقة لتخطيط شمولي يحمي ويحافظ على مركز المدينة التقليدي ويحمي الذاكرة الذهنية للمنطقة ويحافظ على المباني القديمة من الهدم واستبدالها بمجمعات تجارية بطرز جديدة غريبة عن المحيط التقليدي، إن عدم انسجام المباني الجديدة ذات الارتفاعات والطرز الـ حديثة مع النسيج العمراني القديم في مركز المدينة يؤدي إلى تشويه المشهد البصري وفقدان الهوية المعمارية.

منهجية الدراسة:

لقد اعتمد البحث المنهج الاستقرائي بحدود ما تمكن الباحث من الوصول اليه من كتب ومجلات وايحاث ودراسات مشابهة لمنطقة الدراسة، والمنهج الوصفي التحليلي للمكان من خلال المشاهدة والتسجيل والوصف في حدود منطقة الدراسة (مركز مدينة طولكرم)

حدود الدّراسة المكانية والزمانية:

- **حدود الدراسة المكانية:** تركّز هذه الدراسة على الوسط التّجاري في مدينة طولْكرم، والذي يتمثّل بمركز المدينة التّجاري والسياحي والتّاريخي والْوظيفي، كما يمتاز بجماليات المباني القديمة في منطقة الدراسة والتي تشمل منطقة ومحيط المسجد القديم وسوق الذّهب، امتدادا مع الشّارع الرئيسي والذي يمتد من محيط مبنى السرايا العثْماني بلدية طولْكرم القديمة مرورا بسوق الذّهب حتّى مفرق التّربية والتّعليم القديم، والذي يعتبر المركز التّجاري والاقْتصادي وشريان الحركة الرئيسي وحلْقة الوصل فيها كما توضح الخريطة المرفقة مكان الدراسة والمعالم المميزة في المنطقة شكل رقم (1).

شكل (1): المعالم المميزة في منطقة الدراسة

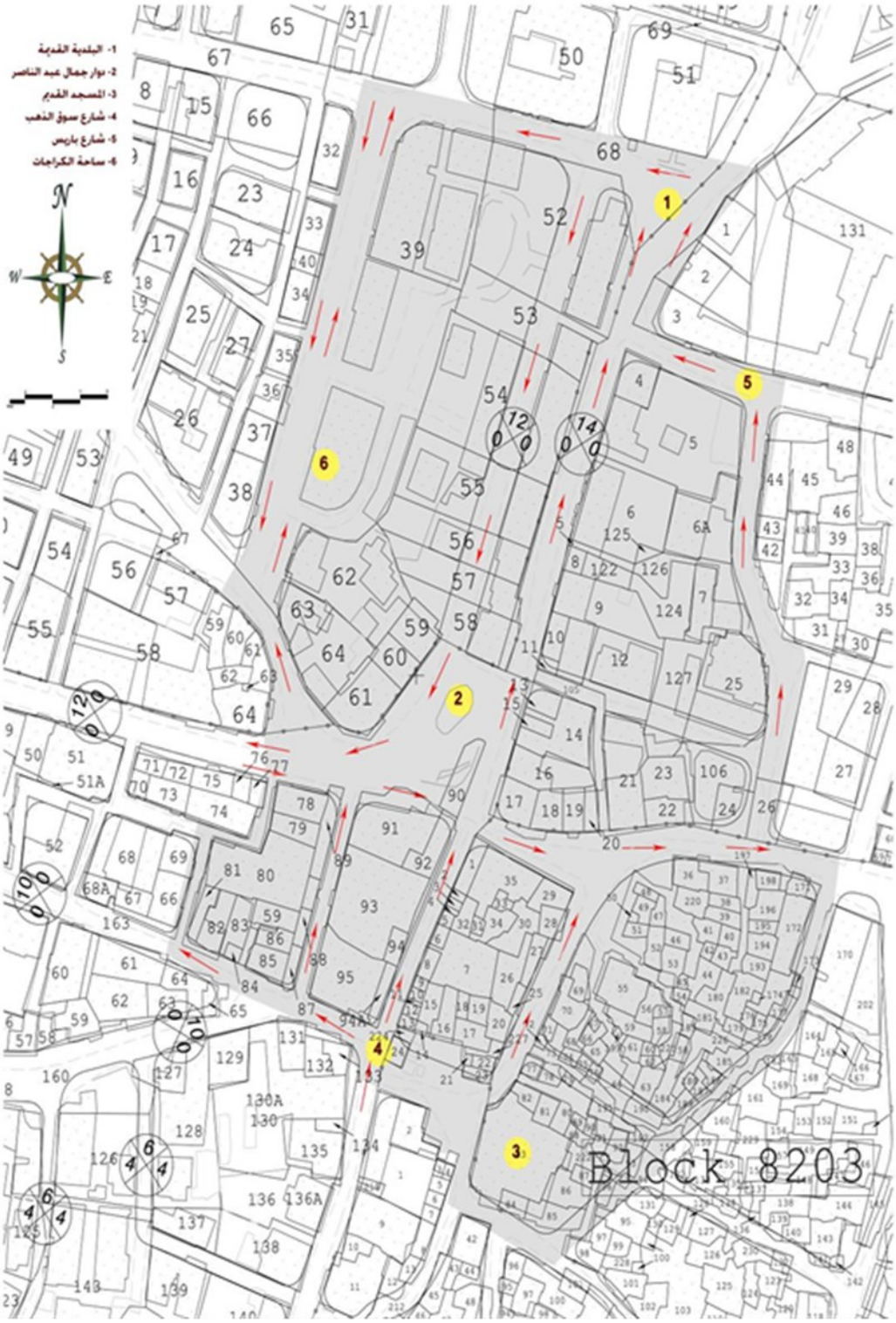

المصدر: (بلدية طولكرم، بتصرف الباحث).

- **حدود الدراسة الزمانية: ضمن الفترة الزمنية من بداية أذار 2022 لغاية شهر نيسان 2024.**

وقد ركزت هذه الدراسة على المباني في الشارع الرئيسي السرايا العثمانية المتحف بيت الجبالي حوش سواد الجامع القديم والسبب في ذلك أن هذه المباني هي مبان لها رمزية لما شغلته من وظائف مختلفة من البدايات على المدينة وكان لها نفوذها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والذي انعكس على رمزيتها وتميزها وتفردها.

الدراسات السابقة:

1- تناولت دراسة جواد التحولات التي شهدتها المراكز التاريخية للمدن نتيجة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والضغوط الحضرية الحديثة، وقد أدت هذه التحولات إلى تغييرات في استخدام الأراضي، وتدهور النسيج العمراني، وفقدان العديد من السمات المعمارية التي ميزت هذه المراكز عبر الزمن، استقطبت هذه المناطق مشاريع تطوير حضري معاصرة تجاهلت إلى حد كبير قيمتها التاريخية، مما أدى إلى هدم أجزاء كبيرة من نسيجها القديم واستبدالها بتصاميم لا تتناسب مع السياق المحلي، وقد أثر ذلك سلبا على هويتها وجاذبيتها البصرية، تهدف الدراسة إلى تشخيص هذه التحولات ورصد آثارها على البنية الحضرية والتكوين البصري للمراكز التاريخية من خلال تحديد مؤشرات التغيير ومحركاته واتجاهاته. سيسهم ذلك في وضع خطوات عملية لإعادة إحياء هذه المراكز والحفاظ على طابعها المميز، بما في ذلك استعادة تخطيطاتها ومساحاتها التقليدية وتحديد المواقع ذات الجاذبية الاقتصادية (جواد، 2011).

2- استخدم العشاوي المنهج التحليلي الوصفي لدراسة التراث العمراني في منطقة الدراسة، بهدف تشخيصه وحفظه وإعادة تأهيله والاستثمار فيه اقتصاديا وسياحيا، كما استخدم المنهج الاستقرائي لتحديد التغيرات التي طرأت على التراث العمراني والمعماري، وتحليل واقع هذا التراث، واستشراف مستقبل التنمية المستدامة المناسبة له. إلى جانب ذلك، أجرى العشاوي مسحا ميدانيا لتحديد الوضع الراهن للتراث المعماري في منطقة الدراسة، من خلال التقاط صور والتعرف على آراء السكان، وتناولت الدراسة التراث العمراني وإدارته وحفظه من خلال مقابلات شخصية مع السكان. كما بحثت واقع التراث العمراني في مركز المدينة ومشكلاته المختلفة، بما في ذلك التعدي على المباني التراثية وتشويه الطراز المعماري التقليدي، مما يؤدي إلى تلوث بصري. وتناولت الدراسة أيضا التحديات التي تواجه التراث العمراني والمعماري في مركز المدينة التاريخي، على الرغم من الجهود المبذولة لترميم وتنظيم وتنسيق بعض المباني الهامة وغيرها من المساحات، وإعادة تأهيل البنية التحتية، فضلاً عن الرؤية المستقبلية لحفظ التراث العمراني، اختتمت الدراسة بنتائج واقتراحات تسهم في صون وإعادة تأهيل التراث العمراني لمركز مدينة أبها، بما يعزز الاستثمار الاقتصادي والسياحي، ويضمن استدامته للأجيال القادمة. كما قدمت الدراسة مقترحات لتحقيق التنمية المستدامة لمركز مدينة أبها، بما يضمن صونه للأجيال القادمة، مما يتيح لنا الاستفادة من هذه النتائج في دراسة مدن سعودية أخرى (العشاوي، 2022).

3- هدفت دراسة السباعي إلى تقييم تجربة إعادة تأهيل منطقة درب الأحمر وشارع المعز، مع التركيز على مفهوم صون المعالم التراثية وارتباطها بالقيم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المعاصرة، وقد تحقق ذلك من خلال برامج التنمية المستدامة، التي بدورها تسهم في تعميق الوعي بأهمية التراث لدى السكان المستفيدين من برامج التنمية المستدامة والتخطيط العمراني في تلك المنطقة التاريخية، استكشفت الدراسة تحديات صون القيم التراثية، وسعت إلى فهم أصالة الماضي وتأثيره الفعال على الحاضر بما يتماشى مع متطلبات واحتياجات الأجيال القادمة، وبالتالي تسهم في تنمية المجتمع المحلي المحيط من خلال هذه البرامج، يهدف هذا البحث إلى تحقيق تنمية حضرية شاملة ومشاركة مجتمعية فعالة، وذلك في إطار تطوير مفهوم الحفاظ على المباني التراثية ليشمل المناطق الحضرية المحيطة وسكانها، ودراسة تجارب تطوير المناطق التاريخية، لا سيما تلك التي يقطنها سكان من ذوي الدخل المحدود، بهدف تحقيق التوازن بين القيمة التاريخية للمكان ومتطلبات التنمية المستدامة، ودراسة كيفية إعداد برامج للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع المحلي. ويركز البحث على فكرة الحفاظ على المباني التاريخية وإعادة توظيفها بطرق متوازنة مع التنمية والنمو الحضري ومتطلباته، وربطها بالقيم الاجتماعية والثقافية من خلال برامج التنمية المستدامة، وتعميق الوعي الجمالي لدى السكان بأهمية التراث (السباعي، 2022).

تكشف الدراسات السابقة عن تركيز واضح على التحولات الحضرية، والحفاظ على المراكز التاريخية، وترميم التراث المعماري، دون تناول العناصر البصرية والجمالية بشكل مباشر وشامل كمكون مستقل في تقييم المساحات الحضرية. علاوة على ذلك، تفتقر الدراسات المنشورة إلى دراسة مخصصة لمدينة طولكرم، ولا سيما مركزها التاريخي، الذي يشهد تدهورا في نسيجه العمراني وفقدانا تدريجيا للعديد من مبانيه القديمة، دون توثيق شامل يجمعها في مرجع واحد. تهدف هذه الدراسة إلى سد هذه الفجوة من خلال تقديم تحليل معمق للمشهد البصري والجمالي في وسط مدينة طولكرم، وتوثيق مبانيها التاريخية التي تتلاشى معالمها أو تستبدل بمبانٍ حديثة، وتشخيص المشكلات التخطيطية والبصرية الناجمة عن التحولات المعاصرة، يتمثل الهدف في وضع إطار علمي يمكن للبلدية والمؤسسات المعنية استخدامه لتطوير استراتيجيات تحافظ على الهوية الحضرية للمدينة وتعزز جودة مشهدها الحضري.

الإطار النّظري:

تعتبر مدينة طولْكرم واحدة من الْمدن التّاريخية الّتي تحتضن الْعديد من الْمباني الْقديمة الّتي تعكس التّراث الثّقافي والْمعماري للْمنطقة، ولفهم الْمظْهر التّخْطيطي للْمدينة يتطلّب الْقيام بدراسة شاملة للتّركيبة الْعمرانية والتّخْطيط الْحضري الّتي تشكّلت على مر العصور، ويشْمل هذا الْمظْهر توزيع الْمباني، الشّوارع، الساحات، والْأماكن الْعامة، كما تأثّر التّخْطيط الْعمراني بالْعوامل التّاريخية والْجغْرافية، حيث تقّع طولْكرم في موقع استراتيجي على تلال خفيفة بالْقرب السهل الساحلي في الْجهة الْغربية، والذي أثّر على نمط التّوسع الْعمراني وتوزيع الْمباني، الْإضافة إلى ذلك تأثّرت الْمدينة بالْأحداث التّاريخية الْمخْتلفة، مثْل الْحكْم الْعثْماني، والْانْتداب الْبريطاني، والْاحتلال الإسرائيلي، أثرت على تصميم وتطْوير الْبنْية التّحتية للْمدينة.

تساهم دراسة المظْهر التّخطيطي للْمدينة الْقديمة في فهم أعمق لتراثها الْغني وتاريخها الْعريق من خلال توثيق هذه الْجوانب التّخطيطية يمكن الْحفاظ على هذا التّراث للْأجيال الْقادمة والْاستفادة منه في تعزيز الْهوية الثّقافية وتحقيق التّنمية الْمستدامة للْمدينة.

أولا: المظْهر التّخْطيطي لمدينة طولْكرم القديمة

المظْهر التّخطيطي لمدينة طولْكرم القديمة يرتبط بالْهيكل المعماري أو التّنظيمي للْمباني، كما تضمنت الفراغات التي تظهر فيها عناصر معمارية مثْل المآذن والْقباب والْأفْنية والطّرق والْعناصر التي تفْرضها الخصائص الطّبيعية والْمناخية للْمكان، وا لْخصائص الاقْتصادية والاجتماعية للسكّان، وهكذا بدأ الرسم التّخطيطي لمدينة طولْكرم القديمة ويبرز هذا من زاويتين مختلفتين تماما، من المنْظر الْعام للْمدينة من الأعلى والثّاني هو المنْظر المحلّي للْمدينة من الدّاخل، المرتبط بالْمقْياس البشري والْإحساس بالْحجم والْمساحة التي يتكون منها الخارج أو الدّاخل في شكْل المدينة، لا تستند مدينة طولْكرم إلى النّظْرة العامة لها، ولكن على النّظْرة العامة لمخطّطها الحالي حتّى يتم تحديد شبكة الشّوارع والْمباني وتحديد مظْهر المخطط، وتأثّرها بالاعتماد على الآراء المحلّية بالْمناخ والظّروف الاجتماعية والدينية وعوامل الأمن والدفاع ودرجة التّرابط السكّاني في المدينة، ما هي العوامل التي تفسر سبب كون عرض الشّارع أصغر بكثير من ارتفاع المباني على الجانب لتوفير أقصى قدْرا من الظّل للْمارة ؟ بالْإضافة إلى الظّهور في سوق الذّهب، يبدو أنّ الأزقة ضيقة وملْتفّة تمنح المدينة شعور الألفة والراحة والسعادة، وأغْلب تلْك المدن تكون حركة السيارات فيها صعبة لضيق شوارعها وأزقّتها، والسير فيها أجمل وأسهل، حيث يبعث على الراحة النّفْسية، ويمنح شعورا بوجود ألفة اجتماعية وطمأْنينة.

إذا نظرنا إلى الواجهات الجانبية لشوارع البلْدة القديمة، فإننا نرى وحدة عامة للْواجهات من حيث مواد البناء ولا تختلف في الارتفاع وطبيعة اللّون والتّفاصيل المعمارية لكل مبنى، بالْإضافة إلى العناصر التّجميلية التّكْميلية مثْل عناصر الإضاءة أو المظلّات للْمحال التّجارية والْعناصر الأخرى التي تؤكّد الحجم البشري للشّارع، يتزامن هذا مع وجود مقياس آخر قدمته هندسة المساجد بقبابها ومآذنها، مما يعطي علامة عمرانية للْمدينة وتكْوينها البصري (حيدر، 1994)، يتكون هيكل البلْدة القديمة وتكْوينها المكاني من الطريق الرئيسي (عصب المدينة، القصبة) الذي يمر عبر البلْدة القديمة، والْواجهات المطلة عليه متنوعة وتتشكّل بفراغات متداخلة (محلات تجارية وأماكن عامة)، تمثّل الأزقة مداخل التّجمعات السكنية، حيث تخلو الجدران من أي شيء سوى فتحات أبواب المنازل، وباختصار يبدو أنّ الشّارع هو العامل الأساسي في تشكيل الصورة المرئية.

أما بالنّسبة للتّركيب المكاني لمعظم النّاس في البلْدة القديمة، فعادة ما يكون المارة على دراية بالْمدينة ويمكنهم رؤية جزيئاتها من خلال الحركة داخلها، وبالتّالي يلاحظون جميع العناصر المحيطة من واجهات وبوابات المحال التّجارية والْمباني العامة المميزة أمام المنازل، والْأكْشاك، وفجأة تتقطع الرؤية عند انكسار الضوء لجزيئات التّكْوين البصري والعناصر التي تشكلها، ثم ارفع نظرك يصعد المشاهد إلى مرتفعات مآذن المساجد البارزة، وهذا يعني تنوع التّكْوين البصري لشوارع المدينة القديمة، وخاصة وأن معظم هذه المسارات تتميز بالتّعرجات والالْتواءات، الأمر الذي ساعد ضيق الشّوارع كما في المدن الإسلامية إلى قلّة تعرضها

لأشعة الشّمس المباشرة خاصة مع ارتفاع المباني والتّنوع ما بين الشّارع والْحارة والزّقاق ولكل منها وظيفة خاصة إضافة إلى توفير الظّلال والْحماية من أشعة الشّمس مما يسمح بانتقال الْهواء (الحنبلي، 2005، ص. 106)، إن معالم المدينة الإسلامية في مركز المدينة هي الأكْثر وضوحا وظهورا، واشْتركت مدينة طولْكرم مع المدن الإسلامية بعناصرها وخصائصها العامة وسيتم هنا تحديد السمة العامة من خلال المرور بعناصرها وخصائصها، من خلال عناصر المدينة الإسلامية كالْجامع الرئيسي يعتبر الجامع القديم الكبير الواقع في شرق المدينة القديمة بمثابة الجامع الرئيسي، وانْتشرتْ مساجد أخرى في باقي أجزاء المدينة حيث أصبح في كل حارة مسجد والمسجد الرئيسي يتوسط المدينة.

علْما أن مدينة طولْكرم نشأت منذ البداية قرية صغيرة وتطورت ولكن نشْأتها وتطوراتها كمدن العواصم أو الأمصار في الفترة الإسلامية، فكان المسجد الجامع مركز تخطيطها من أول منشئها وهذا يتماشى مع السمة الإسلامية بخاصة وان المسجد في كثير من المدن الإسلامية هو بؤرة المدينة، وتقسم المدينة إلى عدة أحياء هي: الحي الغربي – الشرقي – القبلي – الشّمالي، وحي الفقهاء وقد اكتسب هذا الاسم لوجود زاوية الفقهاء في الحي، ولأن جزْءا لا بأْس به من سكّان هذا الحي من العلماء، والْمخيمين (مخيم طولْكرم، مخيم نور شمس) جزْء من المدينة، أما تقسيم المدينة إلى أحياء تجارية وصناعية وسكنية كما هو الْحال في المدن الكبيرة الحديثة، فالْمنطقة التّجارية تشمل جوانب معظم الشّوارع الرئيسية في المدينة، وتكون هذه بعرض 12 مترا على طرفي الشّارع الرئيسي، وقد أخذت البلدية بتجميل المدينة فشقّت الطّرق الفرعية وعبدتْها ولاتزال عملية الهدْم والْبناء قائمة.

إن أشكال التّجمعات البشرية ونمط المساكن ومادة بنائها تعكس بصورة واضحة مقومات الوسط الطّبيعي ودرجة التّطور التي وصلت إليها الهيئة الاجتماعية في ذلك الوسط وان شكْل البناء خاضعا في الدرجة الأولى إلى الْمواد الأولية (بدير، 1964، ص.75)، ويتجمع السكّان في هذه الحارات بناء على العلاقات الاجتماعية، القرابة أو العائلية أو النسب، والْأسواق المختلفة في مناطق متفرقة من المدينة والْمتمركزة وسط المدينة مثْل سوق السبت، سوق السمك، سوق الخضار، تبدأ الحركة في هذه المناطق مع الفجر للتّحضير والتّجهيز لزوار المدينة وأهلها، لعبت الخانات دورا مهما في تفعيل الحركة التّجارية داخل المدينة من خلال توفير الراحة للزّوار والتّجار، وانتشرت الْخانات في المدينة القديمة وكانت تستعمل لنزول التّجار وقوافلهم من خارج المدينة أو لتجارة الجملة، أو لبيع نوع معين من البضائع، مثْل خان (خان جبر، خان المصري، خان الشّلبي، خان العسكري، خان البلاصية، خان العدم، خان البيطار، خان أبو العيون)(البرقاوي، 1994، ص.38)، والسرايا أو مركز الحكم المتصرفية التي تعنى بأمور المدينة تحت إمرة الوالي ثم الخليفة، وكانت تقع في السرايا العثْمانية، وتظهر الخصائص المشْتركة بين المدن الإسلامية والْبلْدة القديمة في مدينة طولْكرم من خلال تلاصق الأبنية وتراصها مكونة بذلك نسيجا عمرانيا متّصلا، وهذا ما يلاحظ في النسيج العمراني للْمدينة؛ لتصبح المدينة كلها عبارة عن مبنى واحد تتخلّله شرايين الحركة.

وتظهر بنية المدينة بوضوح التي نتجت عن النمو العضوي والطّبيعي في ظل العادات والتّقاليد وتعاليم الدين تحت الظّروف البيئية، وقد اتّبع الأسلوب الخلوي في بناء المساكن، فالْبيت الواحد كان بمثابة خلية تتصل من عدة جهات ببقية الخلايا (البيوت) وتتجه في الوقْت نفسه نحو الداخل إلى فناء مكشوف، والذي يمثّل نواة هذه الخلية، وقد جاء هذا النمط من المباني ذات الأفْنية

مناسبا لطبيعة المناخ (المجلة المعمارية العربية، 1988، ص.4)، أما في الأدوار العلوية فقد تم اللّجوء لفكرة المشربيات على النوافذ، وذلك لتمكين أصحاب البيت من النظر للشارع دون أن يراهم أحدا، وهذا كلّه يؤثّر في التّكوين البصري لشوارع المدينة، وساهمت هذه العوامل في إيجاد طابع للفراغات والواجهات الخارجية بحيث تعطي إحساسا بالانغلاق في الخارج والانفتاح على الداخل.

وأما في الأحياء السكنية فقد كانت الشّوارع والطّرق مخصصة في الأساس للمشاة وليس للمركبات، كما تميز النسيج العمراني بنظام الطّرق سواء النّافذة منها الرئيسية أو الثّانوية أو مغلقة النّهاية (الزّقاق)، والتي تنساب من القصبة الرئيسية للمدينة بعروض قليلة تتناسب مع حركة الإنسان والدواب التي تجر العربات، وقد كان المقياس الإنساني هو المعيار، كذلك فإن ضيق الشّوارع يوفّر الظّل للمارة معظم أوقات النهار ساعد ضيق الشّوارع إلى قلّة تعرضها لأشعة الشّمس المباشرة خاصة مع ارتفاع المباني، كما أن بعض أجزاء من الشّوارع كانت مغطاة بقطع من الأقمشة كمظلات لتوفير الظّل والحماية من المطر، وهذا يؤكّد على الاهتمام بتوفير أقصى درجة من الخصوصية، مما يقتضي الفصل التّام بين المباني العامة (التّجارية) والمباني الخاصة والأحياء السكنية.

وتجمع الأسواق في مركز المدينة (حول الجامع) وعلى امتداد الطّريق، إذ يعد السوق أحد أهم العناصر المميزة للمدن، فأصحاب المهن الواحدة يتجمعون في أسواق خاصة بهم، إذ كانت تتجمع المحال التي تبيع البضاعة نفسها، أو أصحاب المهنة الواحدة في أسواق خاصة بهم، وكان موقع كل سوق بالنسبة للجامع (قربه أو بعيدا عنه) يتحدد وفق طبيعة البضاعة أو المهنة، فقد كانت البضائع أو المهنة التي تسبب إزعاجا للناس (نتيجة للصوت أو الرائحة) تخصص لها أماكن بعيدة عن الجامع والأحياء السكنية غالبا في طرف السوق وبالقرب من مداخل المدينة مثل سوق الحدادين، وهكذا فإن المدينة القديمة عكست نموذج المدينة الإسلامية بمجمل عناصرها وخصائصها، والتي ما تزال ظاهرة بوضوح حتى يومنا هذا، وهي الآن مهددة جراء الأحوال الجوية والممارسات لساكنيها أو تحويلها إلى استخدامات أخرى تجارية أو سياحية، والهدم المستمر لمبانيها المهمة، الأمر الذي يقتضي منا بذل كل الجهود للمحافظة عليه وترميمها قبل أن يتم تغيير معالمها.

ثانيا: المباني التّاريخية في مركز مدينة طولكرم

يعود تاريخ مدينة طولكرم إلى العصر الحجري، وبدأ تاريخها الإسلامي منذ العصر الأموي، حيث تم العثور على العديد من الشواهد الأثرية التي تعود إلى تلك الفترة، وفي العصر الأيوبي عندما استعاد المسلمون السيطرة على المنطقة، شهدت فلسطين موجات هجرة للعديد من الأشخاص القادمين من المملكة العربية السعودية ودول شمال إفريقيا واستقروا في طولكرم، عمل معظم السكان في الزراعة وتربية الماشية وبيع الجلود للتجار في المناطق الساحلية، وظل وضع المنطقة مستقرا لفترة من الزمن حتى وصول العثمانيين عام 1517م، وساهم الدين في تقدم المدينة اجتماعيا واقتصاديا نهاية العصر العثماني بداية القرن الماضي، ومع تدشين خطّ السكّة الحديد وقطار الحجاز ازدهرت منطقة طولكرم بسبب مركزيتها وموقعها المركزي، أصبحت طولكرم مركزا تجاريا مهما ساهم في زيادة عدد سكان البلدة خلال تلك الفترة، وبدأ الناس الهجرة إليها من نابلس والقرى المجاورة نظرا لتوفر

فرص العمل، وأدت الخدمات الأساسية المتنوعة إلى زيادة عدد المباني هناك، لجأ الناس إلى طولكرم للعمل والسكن، ولا تزال المدينة تحتفظ بالعديد من المباني التاريخية التقليدية والتي تعتبر معالم مميزة في منطقة الدراسة كما يظهر بالخريطة المرفقة ويظهر فيها المباني التاريخية شكل رقم (2).

شكل (2): المباني المميزة والتاريخية المستهدفة بالدراسة

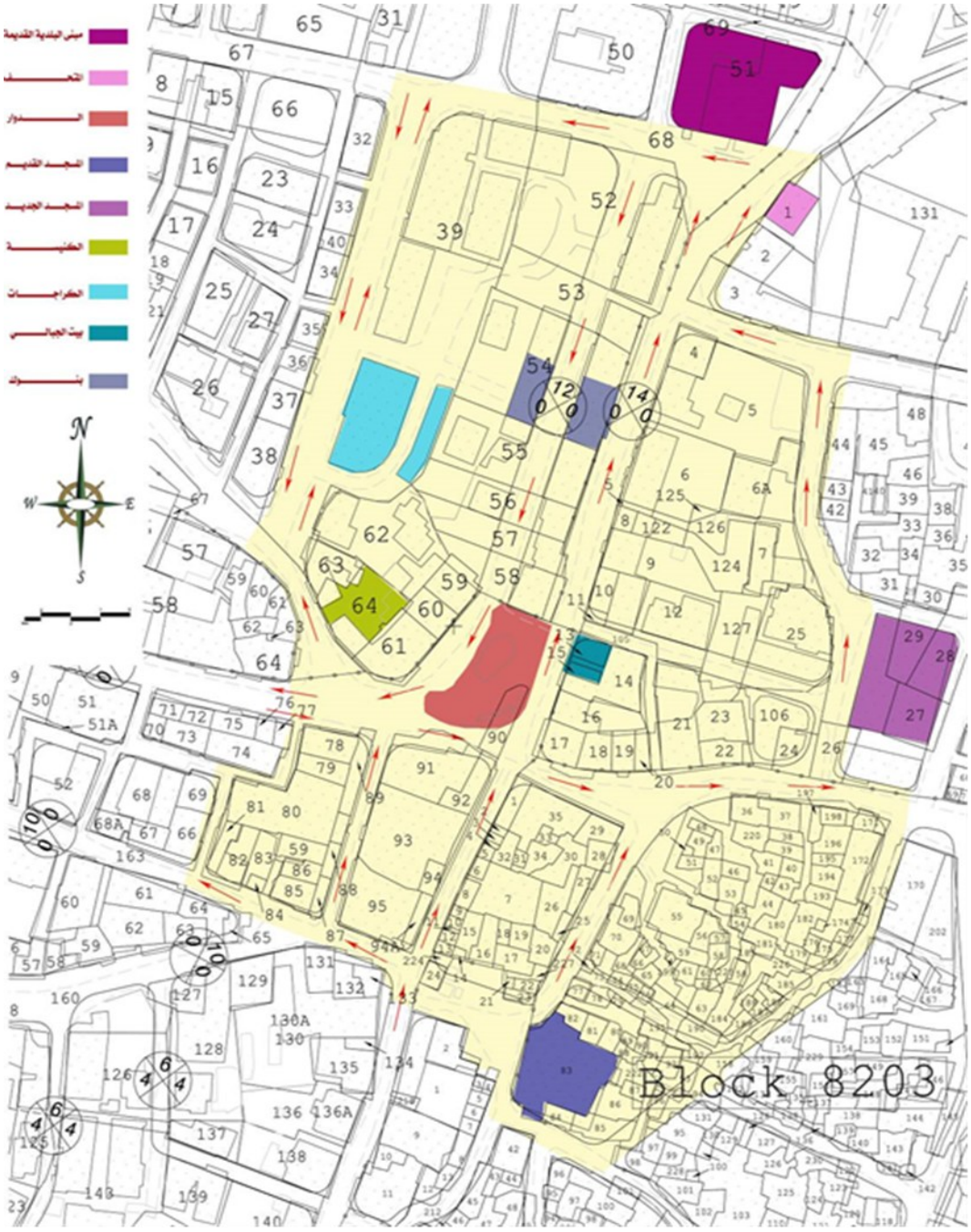

المصدر: (بلدية طولكرم، بتصرف الباحث)

1- دار الحكومة العثمانية (السرايا)

مبنى تاريخي يلفت الأنظار، ولا أحد يدخل المدينة أو يخرج منها دون أن يتوقّف ويتأمل جمال هذا المبنى، ويتساءل عن تاريخه واستخداماته، إنها السرايا العثمانية لذلك عندما نتحدث عن السرايا العثمانية، فإننا لا نتحدث عن مبنى تاريخي تقليدي، بل نتحدث عن عمل معماري يحمل فنا راقيا وجمالا معماريا ذات طراز مميز وتشكيلات تمثّل الهندسة المعمارية الرائعة بموقعها المعماري الشامخ والمنتظم بالشكل الذي ينفرد عن المباني التقليدية الأخرى، ذات علامة مميزة للمدينة متمثلا بدرجه الذي يربط الطابق الأول بالطابق الثاني، من خارج المبنى يصعد إلى الطابق الثاني، يمثل الجمال والقيم التراثية التي يحملها والتي تجعله جديرا بالاهتمام.

يعود تاريخ إنشاء هذا المبنى إلى عام (1893م، 1311 هـ)، وهو من المناظر المستحسنة والجميلة (دار الحكومة) القائمة في منتهى الطريق الوحيد في الشمال الشرقي من القصبة، السراي أو دار الحكومة أو قصر الحاكم لها أسماء مختلفة لمبنى السرايا العثماني، وهو مبنى تاريخي تأسس كمنزل للحكومة ودوائرها، بما في ذلك البلدية، بالنظر إلى مدخل المبنى، تم تشييد المبنى بقرار من الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد الثاني إلى خالد بابان محافظ بيروت وحسين محافظ نابلس، وصالح الركابي أول قائم مقام طولكرم، يقع مبنى الحكومة العثمانية، القائمقامية العثمانية أو المعروف باسم السرايا العثمانية، في وسط المدينة، تتربع بجمالها منتصف الواجهة الشمالية للقصبة تتفرد بسيادتها وتصميمها الفريد مرفوعة على قوس يعلوه أدراج من الجهتين يلتقيان بالوسط بدرج واحد إلى الطابق الثاني وكأنها محمولة بكفين، بناية من طابقين بها عدد كبير من الغرف من الداخل تتزين الغرف والممرات بالأقواس الداخلية لأنها بنيت بنظام العقود، وكل غرفة فيها أكثر من شباك حسب موقع الغرفة وتأخذ الشكل الطولي بالارتفاع ويعلوها أقواس كما أن الأبواب تكون نهايتها من الأعلى أقواس من الحجر بطريقة جميلة، وسماكة الواجهات حوالي المتر، وجميع الواجهات من الحجر الأبيض المهندم، كما أن الغرف تطل على الداخل على ساحة مفتوحة إلى السماء محاطة بالغرف من الجهات الأربعة، يتوسطها المدخل من الجهة القبلية، تواجه الشارع من الشمال يتكون سقف المبنى من قباب، كان هذا المبنى (دار الحكومة) هو المقام القائمية حيث قام القائم مقام الدولة العثمانية بمهمة الإشراف على المدينة، تم استخدام المبنى كمقر للجيش العثماني الثامن خلال الحرب العالمية الأولى من عام (1914م – 1918م)، ومقر الانتداب البريطاني من (1920م – 1946 م)، كانت تستخدم كمقر الحكومة أثناء الانتداب البريطاني سجن ومركز توقيف، ومكاتب البلدية، في عام 1946م أصبح المبنى ملكا لبلدية طولكرم بعد شرائه من الانتداب البريطاني مقابل 5000 جنيه فلسطيني، في عام 1948 م كانت مدينة طولكرم تابعة للملكة الأردنية الهاشمية وكان المبنى يستخدم كمدرسة للأطفال اللاجئين، ومقر لمستشفى الجهاد ومقر لجمعية التضامن الخيرية، واستمرت البلدية في استخدامها كمقر رئيسي لها، كما أقامت المكتبة العامة في إحدى قاعاته، وكانت مقرا لمدرسة نور الدين الزنكي الإعدادية في الطابق الأول الأرضي ومدرسة طه حسين الابتدائية في الطابق الثاني، مع دخول السلطة الوطنية الفلسطينية عام 1994م، تم استخدام المبنى في الطوابق العليا كمقر أمني ولاحقا كمقر لمكاتب منظمة التحرير الفلسطينية، وحركة فتح في منطقة طولكرم، والعديد من المنشآت العسكرية، من المؤسسات ذات الصلة، تم

استخدام الطّابق الأرضي من قبل الشّرطة الفلسطينية كمخفر لشرطة المدينة، في عام 2009 م تلقّت بلدية طولكرم دعما ماليا من المؤسسات الإيطالية في توسكانا، لترميم المبنى ليكون شاهد على التّراث الثّقافي والتّاريخي لبلدية طولكرم، وهكذا أصبحت الطّ وابق العليا بيت ضيافة (نزل) يحتوي على غرف فندقية، بينما تم تجديد الطّابق الأرضي ليصبح بازار شعبيا وتقليديا ويحتوي على قاعات مؤتمرات وندوات ومكتب للمعلومات السياحية (جبارة، 2019) والصور التالية تظهر الشكل العام لمنى البلدية القديم السرايا في شكل رقم (3).

شكل رقم (3): دار الحكومة العثمانية (السرايا) والشّارع العثماني

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

1- دائرة البرق والبريد (تلغراف عثماني) مبنى المتحف:

على بعد خطوات قليلة من وسط المدينة، وفي زاوية جانب السرايا من الجهة الشّرقية في نهاية الشارع العثماني شمالا، تم تزيين الواجهة الأمامية والرئيسية للمبنى بزخارف هندسية مختلفة الأشكال، يتكون المبنى من أربع غرف كبيرة وصالون من غرفتين وحديقة تابعة للمبنى، سقف المبنى من القرميد الأحمر المشوي. يتجسد الجمال الذي خلّفته الحضارات، يجذبك التّاريخ بأصالته وبحجارته المزخرفة، مبنى حجري جميل تقدر مساحته ب 200 متر، يعود تاريخ هذا المبنى إلى عام 1908م، أي في

نهاية العصر العثماني ونهاية سلطة عبد الحميد الثّاني، وفي تلك الفترة أنشئت معظم المؤسسات الحكومية العثمانية في طولكرم، وكان المبنى عبارة عن دائرة البرق والبريد (تلغراف عثماني) في فترة الحكم العثماني، ثم مستوصف صحي في عهد الانتداب البريطاني في أيام الثّورة الفلسطينية ثورة الثّلاثينيات، وأثناء فترة إدارة المنطقة الأردنية أصبحت مقرا للحاكم الأردني، ثم أصبحت جزءا من مدرسة مطلع السبعينيات أثناء الاحتلال (الإسرائيلي)، وبعد ذلك تم إغلاق المبنى وأصبح (يتبع دائرة أملاك الغائبين) مهملا، حتّى وصول السلطة الوطنية الفلسطينية عام 1994م، التي بادرت إلى ترميم المبنى وتحويله إلى متحف طولكرم كما يظهر بالصور شكل المتحف بعد الترميم والتشغيل شكل رقم (4).

شكل رقم (4): مبنى المتحف

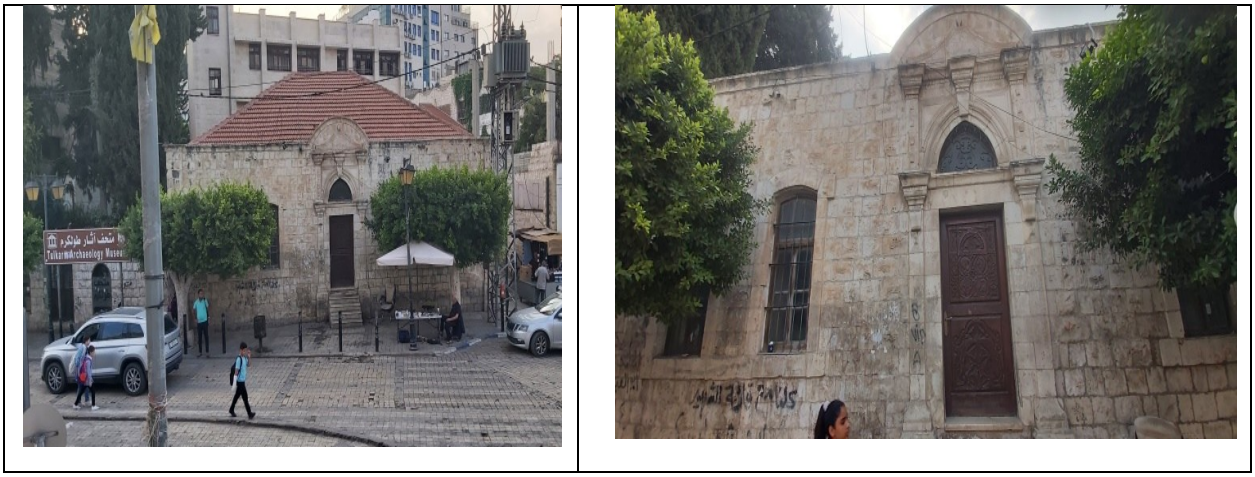

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

وكذلك الدور اللّطيفة المنفردة القائمة في الجانب الشرقي من الطريق الذي لا يتجاوز طوله الخمس دقائق وهو عرق الحياة في كافّة طول كرم، وأن كافّة حوانيت طول كرم ومقاهيها وباحتها الصغيرة وأسواقها التي تقام صباحا ومساء هي في النقطة المتوسطة من هذه الطريق (التميمي، 2000، ص. 192)، وكانت المباني دائما عرضة للتغيير على مر التاريخ، وذلك بسبب الحضارات المتتابعة، ومتطلّبات المالكين، وتطورت المباني تاريخيا من خلال نسيج معقّد من التقاليد المعمارية المحلّية للحضارات المتتابعة، وأدى ذلك إلى تغير أحيا ء المدينة وممراتها ومبانيها، وتأثرت ثقافيا من المدن والبلاد المجاورة أو البعيدة التي اختلفت في تأثيراتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، بالإضافة إلى الأولوية الدينية التي كان لها السيطرة الكبرى في التأثير في أنواع المباني الموجودة في كل مرحلة.

2- حوش أل سواد:

ويسمى أيضا بحوش الدعبول أو (أبو الرب) كما يسمى حاليا، يقع في قلب مدينة طولكرم وتحديدا بالقرب من ساحة جمال عبد النّاصر، ويحتوي على بيوت قديمة مدمجة مزينة بالأقواس والقباب، يفصل بينها طرق ضيقة من الحجارة الصخرية، سوف يغريك مدخله الذي يبدو وكأنه لوحة منحوتة مزينة بالأقواس.

منذ القرن الحادي عشر الهجري اعتبرت طولكرم مركزا جديدا لإقطاع ال برقاوي، إذ اعتبرت تابعة لمركزهم المهم في قرية شوفة التي تضم قلعة محصنة، أدار مشايخ البرقاوي شؤون طولكرم العامة من حيث كافّة مرافق الحياة، فأنشؤوا مطحنة للحبوب في الجزء الغربي من دار سواد، بنوها وأوقفوها لدار سواد وسكّان آخرين، وأحدثوا بئرا لها مياه الينابيع في الجهة الغربية من مدينة طولكرم للشّرب، بالإضافة إلى المرافق العامة الأخرى ومن طولكرم، تولّى مشايخ البرقاوي إدارة شؤون القرى الإقطاعية بأكملها في وادي الشعير والشّعراويات، مع الحفاظ على موقعهم في قرية شوفه.

وكان شيوخ البرقاوي يقضون أيامهم في طولكرم في دار سواد، التي بنوها وقفا لإقامتهم هناك نهارا، تحتوي دار السواد على العديد من غرف السكن، بالإضافة إلى الأقسام المختلفة لإدارة المدينة والإقطاعيين، كما يوجد سجن لحبس المخالفين، وهو واسع ويشبه القلعة المسورة، وهو أقدم بناء في المدينة، وبجانبه من جهة الشّرق مسجد علي المغربي الحسنى (المسجد القديم)، وفي الجهات الغربية والشّمالية والشّرقية للمنزل توجد المحال التجارية ومداخل السكن، وكذلك الحال بالنسبة للجهة الغربية من الشّارع في الدور المقابل لدار السواد، حيث يفصل الشّارع بين المبنيين (البرقاوي، 1994، ص. 21- 23)، وهو أحد المباني القديمة في مدينة طولكرم والذي يعود تاريخه إلى العصر العثماني وتم بناؤه قبل أكثر من 130عاما، تم إنشاء فندق صغير، وما زالت هذه المباني تلعب دورا تجاريا هاما في نشاط المدينة وفي طولكرم، وفي الفناء نفسه يوجد عدد من المنازل العثمانية القديمة التي يسكنها أفراد من عائلة السواد، مباني قديمة متهالكة كما تظهر بالصور في الشكل رقم (5) .

شكل رقْم (5): صورة من داخل حوش أل سواد

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

3- المسجد القديم (المغْربي):

يعود المسجد القديم ومحيطه المجاور إلى العصر العباسي والْفاطمي في طولْكرم، ومن خلال التّنقيبات الإنقاذية التي قامت بها دائرة الآثار في المنطقة تم الكشْف عن وجود فخار كثيف من العصر العباسي والْفاطمي وحتّى المملوكي، والْمسجد القديم أو (المغْربي) يحتوي على نقْش ولوحة تذْكارية تؤرخ المسجد القديم وعمارته بالْفترْة الفاطمية أي أكثر من ألْف سنة مضت، يؤرخ هذا النّقْش المسجد القديم باستخدام حساب الجمل، وأن تجديد المسجد للْمرة الثّانية تم في عهد السلْطان العثْماني عبد الحميد، وموقع المسجد القديم في طولْكرم هو تاريخي وجذْر المدينة.

ظل المسجد ملْتقى لجميع الفنون، مع تنوع الأشْكال التي اخْتلفتْ حسب الزّمان والْمكان ضمن الأشْكال الفنّية وضمن العناصر الجمالية والْمعمارية(المئْذنة والْمحراب والْقبة والْمنبر والْعمود والْأقواس)، بأشْكال من النّحت والزّخْرفة وظهور الدّلّايات الجميلة المقرنصات تضفي جمال على ذلك الجمال، وأسهمت الأعمدة والْأقْواس بأنْواعها وارتفعتْ الأقْواس على الأعمدة من الحجر أو الجرانيت أو الرخام، ارتفعتْ على قواعد وعلّتها تيجانا مورقة ومحفورة بأشْكال وزخارف هندسية أرابيسك، وزخرفت الجدران والْقباب وباطن الأقْواس وتداخلتْ حشوات الخشب في المنابر والْأبواب، حيث الحفْر والنّحت على النّحاس والزّجاج وعلى الجص والْخشب، وتعانقتْ قطْع الفسيفساء والزّجاج الملون (المعشق) ضمن زخرفة النّوافذ، كما علتْ الجدْران والْقباب لوحات خطية آيات من القرآن الكريم وزخارف فنية أبدع بها الخطّاطون، هذا التّناسق والْبساطة والْإبداع أضفى جمال وسكينة روحانية وإحساس بالْمكان جماليات وتكامل الشّعور بالْمحسوس انظر الى الصور التالية في شكل رقم (6).

شكل رقْم (6): الواجهة الأمامية والمدخل الرئيسي للمسجد القديم (المغربي)

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

4- بيت الجبالي:

بيت الجبالي هو البيت الذي لا يزال قائما وسط مدينة طولْكرم، ويطل على ميدان جمال عبد النّاصر، وأصبح شعار ومعلما لمدينة طولْكرم، وواجهة المبنى الجميلة الشّامخة من الجهة الغربية كأنها تطل على الغرب وتتنسم رائحة البحر بمشْربيتها الجميلة التي ترتفع على طول المبنى فوق المحال التّجارية متمثلة في بروز في الطّابق الثّاني، تمتد فوق الشّارع والْمشْربية مبنية من الخشب المنحوت والْمزخرف معلم من معالم الرئيسة وسط المدينة كما يظهر بالصور المرفقة للواجهة الأمامية للمبنى شكل رقم (7).

شكل رقْم (7): صورة بيت الجبالي

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

6- مجموعة من القيم تضمنتها هذه المباني

- **القيمة التّاريخية:** يعود تاريخ البناء إلى فترة الحكم العثْماني أواخر القرن الثّامن عشر، وهي فترة مهمة في تاريخ العمارة في فلسطين لما احتواه من مواد وطرق بناء جديدة ومختلفة، ولذلك فإن قيمة هذه المباني تكمن في أنّه يمثّل نموذج معماري لهذه الفترة التّاريخية، ويسجل خصائصها ومميزاتها المعمارية والْبنائية.
- **القيمة الجمالية :** تتبع القيمة الجمالية للْمباني من طرازه المعماري وما يحتويه من عناصر وتشْكيلات معمارية وهندسية مميزة، والتي تعطي مؤشرا على تحسن الظّروف الاقْتصادية، مما ساهم في خلْق معمار غني بالتّفاصيل والتّشْكيلات المعمارية، ويظهر ذلك بوضوح في المباني من خلال الزّخارف الموجودة على الواجهات والْأعمدة والْمدْخل الرئيسي، بالْإضافة إلى العناصر المعمارية الدّاخلية والتي تتمثّل في البلاط المزخرف والْملون والتّفاصيل الخشبية الفريدة، وكذلك عناصر النّوافذ من إطارات خشبية، وحماية معدنية، وزجاج ملون.
- **القيمة الاجتماعية:** تمثّل هذه المباني نمط البناء المنفرد الذي يعكس مرحلة من تطور نمط الحياة الاجتماعي في طولْكرم، والذي يتمثّل في الخروج عن النسيج الحضري والتّغيير في نمط البناء بنظام الفناء إلى المستقل المنفرد المفْتوح على الخارج.
- **القيمة الاقْتصادية:** تم تشييد بعض هذه المباني في الأصل كمقرات حكومية عامة، ولذلك فهو يعكس ازدهار الوضع الأمني والاقْتصادي للْمدينة القديمة، ويشْهد على حيويتها وأهميتها الاقْتصادية، كما تم استخدامه فيما بعد كمبان متعددة الاستخدام سكن، بلدية، ومدرسة، مؤسسة حكومية، أي أن تاريخ استخدام جزء من هذه المباني يرتبط بالْجوانب الإدارية والْحكومية ويجسد الواقع الأمني القوي الذي كان عليه المدينة القديمة، وبتحليل القيم التّراثية يتبين أن المباني تتمتّع بقيم استثْنائية وأهمية عالية وخصوصا السرايا العثْمانية تجعلها مفتوحا للاستخدام من قبل عامة الجمهور وزوار مدينة طولْكرم حتّى يتمكّنوا من الاستمتاع بالتّاريخ والتّراث المعماري الذي يحتويه، ولعل فكْرة استخدامه كسوق للْحرف التّقْليدية تحقّق هذا الهدف وتتناسب مع القيم الاستثْنائية التي يتمتّع بها هذا المبنى، كما يساعد موقعها الاستراتيجي في وسط المدينة على ذلك من خلال ضمان حرية التّنقّل للْوافدين في أكثر من اتّجاه.

ثالثا: الفراغات المفْتوحة

الفراغات المفْتوحة (الساحات) تتنوع في مدينة طولْكرم جزء مهم من عناصر تكوين المدينة ومرتبط أيضا هذا العنصر المهم في تكوين المدينة الإسلامية، وهي أحد نقاط الاحتكاك الاجتماعي المبني على التّعاملات المختلفة باختلاف هذه الفراغات خاصة وعامة، ساحة المسجد القديم، ساحة ميدان جمال عبد النّاصر، ساحة ميدان الثّابت، ساحة مجمع الكراجات، كما يوجد ساحات

أصغر حجما، وهي عبارة عن امتدادات للشّوارع، وتحددت ببعض جوانب هذه الساحات بكتل المباني، وانفتحت من بعض الجوانب على الشّوارع والطّرق المطلة عليه.

1- الشّارع الرئيسي والساحات العامة والْأسواق التّقْليدية

اختلفت مخططات الساحات العامة والْمساحات في البلْدة القديمة من حيث مساحة المنطقة السكنية، حسب إمكانات وقدرات السكّان وملكية الأرض، وبحسب أهميتها وموقعها ودرجة استعمالها، لكنها انعكست على الشّكْل المعماري والْبنية الاجتماعية المتشابكة مع عدة أقسام وقطْع متعددة الاستخدامات والْأشْكال والْأحجام، كانت عبارة عن منزل تجاري أو سكني، كما في حالة بيت الجبالي وبيت الْحاج إبراهيم والدسوقي وأبو سماحة والددو، وكذلك كونها متعامدة مع خطّ الطريق، فهي تصطف بالتّوازي مع بعضها البعض وتمثّل محلات الطّابق الأرضي وتشكّل خليطا متنوعا من المحال، ويرتبط ذلك بكثر طلبات وقدرات الساكن، وهذا ما يؤكّد الحرية الفردية في الداخل، ولكن في إطار المساواة من الخارج كقيمة اجتماعية (ابراهيم، 1990، ص.696)، وتظهر الصور ميدان جمال عبد الناصر، وميدان ثابت ثابت وسط المدينة في الشكل المرفق رقم (8).

شكل رقْم (8): صورة الساحات العامة ميدان جمال عبد الناصر، وثابت ثابت

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

2- **الأسواق التّقْليدية:** (الأسواق البازار) أماكن انخراط الناس والسكّان في البيع والشّراء وعرض المنتوجات والْعلاقات المختلفة تجارية واجتماعية، منبع حياة وحركة، كخلية نحل منذ الشّروق أو قبل ذلك حتّى المغيب، ويعتبر التّسوق نمطية الحياة اليومية لتوفير الاحتياجات منها الأساسية اليومية من مأكل ومشْرب وملْبس، وتعتبر الأسواق جزءا أصيلا من جماليات مراكز المدن والْأصول الثّقافية للْمدينة، موزعة على عدة أجزاء، يخدم كل جزْء نوعا من التّجارة أو الحرف مثْل سوق الخضار، وسوق الذّهب، والسوق القديم، وسوق السبت كما يتضح بالصور المرفقة في شكل رقم (9).

شكل رقم (9): صورة الأسواق التقليدية

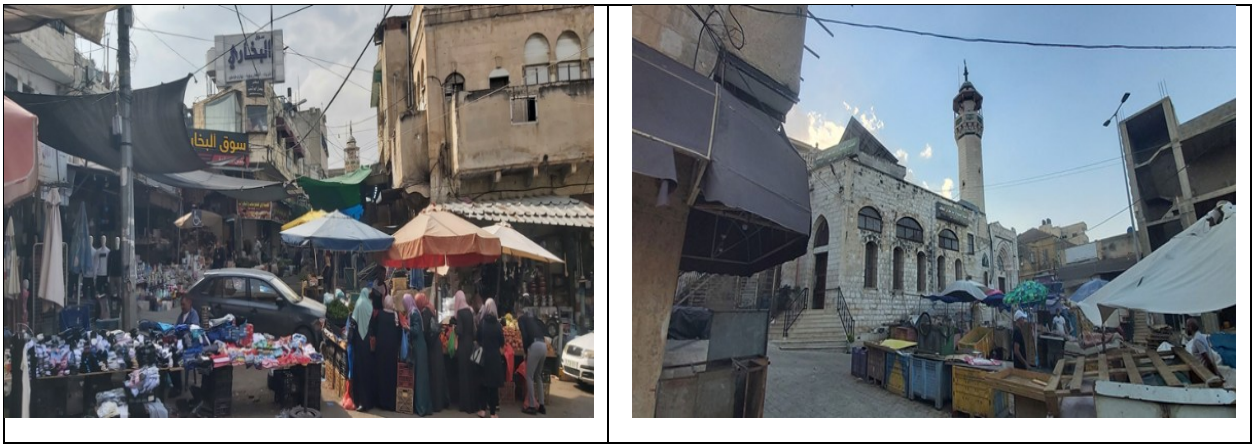

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

3- الشّارع الرئيسي

وقد حدد الشّارع الرئيسي موقع معظم استخدامات الأراضي الموزّعة بين الشّارع الرئيسي وبقية المدينة عن طريق تقليل عرض أو طول أو عدد الممرات التدريجي والذي يتعلق بالسكان ثقافيا أو اجتماعيا أو تجاريا على ما يبدو، ومع توزيع الاستخدامات تتضاءل بشكل أكبر في الممرات بطريقة عضوية، وبالْحديث بشكل عام عن تخطيط استخدام الأراضي، فإن هذه الخطة متنوعة في العديد من الاستخدامات المتعلّقة بجوانب محددة من تاريخ المدينة، وأخرى تتعلّق بالْعادات والتّقاليد الاجتماعية والدّينية للسكّان، مثْل الزّوايا الدينية، والْجوانب المتعلّقة بالاقْتصاد، والْجوانب المتعلّقة بملْكية الأرض وتقْسيمها، وما إلى ذلك من نمط تخطيط استخدام الأراضي في المناطق الحضرية ضمن وحدة أرض واحدة، والْقصبة لها استخدامات متداخلة مختلفة، وتتوزع هذه الاستخدامات بين الحكومية والتّعليمية والتّجارية والْمهنية والسكنية، إلى حد أقل مع الفرعية، وهناك تنوع أقل بكثير أو معدوم ويقْتصر على استخدام واحد إنه ممر سكني مخصص للاستخدام السكني، لذلك كان حساب الحجم يعتمد استخدام الأرض على ما يمكن أن تستوعبه الأرضية المبنية بدلا مما يمكن أن تستوعبه مساحة الأرض في مخطّط عام أو تفْصيلي، خاصة للْمباني المتعدّدة، قد يكون للْأرضيات ولكل طابق مالك يستخْدمه وله وظيفة معينة، وتظْهر الروابط إلى المباني المتاحة الاستخْدامات في هذه الخطة مشابهة للاستخدامات في المدن الإسلامية، والاستخدامات متدرجة فيما يتعلّق بالْمساجد والْمناطق السكنية، ومعظم أجزاء هذه الخطة واضحة في ذلك ومعروفه للْجمهور، ويرجع إلى خلْط الوظائف داخل نفْس المبنى ولكل منها طوابق متعددة، خاصة في مراكز التّسوق حيث يتم تضمين الوظائف الحرفية أو التّجارية أو السكنية أو التّعليمية، بدلا من المباني الفردية المنفصلة هناك بعض الأعمال في المبنى وجودة المحال التّجارية، يعتمد السوق على ما إذا كانوا متخصصين في البيع بالتّجزئة بواجهات القصبة أو البيع بالْجملة لأنواع مختلفة من السلع والْمنافسة والالْتزام بقيم معينة، المنطقة (الشّارع) المخصصة للْحركة وإبعادها تدريجيا عن المراكز الرئيسية من المدن إلى الأحياء والْقصبات، توجد مساحات مستخْدمة كمساحات مفتوحة صغيرة،

خاصة أمام المساجد لاستيعاب الحركة وزيادة المصلّين في يوم العيد ويظهر حجم الشارع الرئيسي بالصورة المرفقة في شكل رقم (10).

شكل رقْم (10): صورة الشّارع الرئيسي

المصدر: تصوير الباحث شهر نيسان/ 2022.

وبالْختام، توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتّوصيات الّتي تؤكّد أن الْمباني الْعثْمانية في طولْكرم، تمثّل جزءا مهما من التّراث الْمعماري لفلسطين وبلاد الشّام، لقد ارتبطت هذه الْمباني بالْعمارة الْإسلامية بشكْل وثيق، وحملت في تصاميمها وأشْكالها فكْرا معماريا يجمع بين الْأصالة والشّموخ، وقد تجلّى هذا الْفكْر في الزّخارف الْمختلفة سواء التّجميلية أو الْوظيفية الّتي تزين الْواجهات الْأمامية للْمباني الْمطلّة على الشّارع الرئيسي.

النتائج:

1 – الازدحامات المرورية داخل المركز التاريخي للمدينة.

2 – وجود مباني مهدمة ومهملة أصبحت مكان لتجمع النفايات.

3 – عدم وجود مرافق خدماتية تلبي الاحتياج العام للمتسوقين.

4 – ظهور المباني الزجاجية الحديثة في مراكز المدينة بارتفاعات عالية لا تنسجم مع المحيط.

5 – بروز تشوهات بصرية مختلفة مثل يافطات، مظلات، إضافات للمباني، اكتظاظ الأرصفة بالبضائع.

التوصيات:

1 – تشجيع الاستثمارات بما يتناسب وينسجم مع الشكل العام للمحيط.

2 – اعتماد سياسة تطوير مراكز المدن من خلال السياسات المدروسة لسياسة التجديد الحضري.

3 – تفعيل الأنظمة والقوانين والتشريعات التي من خلالها نستطيع أن نوازن بين عملية الحفاظ والتطور المستمر والمنسجم مع مراعاة التقنية والتقنيات الحديثة في سياسات التجديد الحضري.

4 – أن يكون هذا البحث هو انطلاق لأبحاث مستقبلية للمباني والمناطق التاريخية.

5 – إعادة هيكلة الطرق والأسواق لسهولة الحركة للمشاة والتسوق في مركز المدينة لاستمرارية الحفاظ عليها.

6 – الحفاظ على المباني على وترميمها وتوظيفها لتكون قادرة على تحقيق على وهويتها جماليا وثقافيا واقتصاديا.

7 – المشاركة المجتمعية وتوعية السكان بأهمية الحفاظ على الموروث على والعمراني.

وبناء على هذه النتائج والتوصيات تتجلّى أهمية دور المؤسسات الحكومية وغير الحكومية والمجتمع في الحفاظ على هذا التراث المعماري الفريد من خلال التعاون المشترك والعمل الجاد يمكن ترميم المباني التاريخية وتوثيقها وتعزيز الوعي الثقافي والتاريخي مما يضمن بقاء هذه الكنوز المعمارية للأجيال القادمة، كذلك تفعيل دور المؤسسات والمجتمع في الحفاظ على التراث المعماري العثماني في طولكرم، والمشاركة في حملات الحفاظ على المباني التاريخية، والاهتمام بصيانتها ونشر الوعي بين أفراد المجتمع حول أهمية التراث المعماري وتعزيز الهوية الثقافية، من خلال تفعيل هذه التوصيات يمكن ضمان الحفاظ على المباني العثمانية في طولكرم واستغلالها كمزارات سياحية وثقافية تعزز الهوية الوطنية وتساهم في التنمية المستدامة.

يتركّب ويدور الهيكل الداخلي للمدينة حول استخدام الأراضي الذي يشغل المساحة الحضرية للمدينة، والاستخدامات السكنية والتجارية والصناعية والإدارية والدينية والترفيهية والنقل، نلاحظ هذه الاستخدامات هي وظائف تؤديها المدن كما هي وظيفة السكن، لذلك لا توجد مدينة خاصة باستخدام وظيفة محددة فقط، وهذه الاستخدامات الحضرية ليست مساحات أو وظائف ثابتة، متغيرة باستمرار نتيجة التفاعل والمنافسة، بعضها يتوسع أحيانا، والبعض الآخر يتقلّص في أحيان أخرى، مما يفسح المجال لوظائف أخرى من الظهور والمنافسة، أي أن هذه الاستخدامات تتميز دائما بالتمرد على المكان الذي تتواجد فيه، وهنا تجدر الإشارة إلى أن استخدام الأراضي الحضرية هو محاولة قد تكون صحيحة في توحيد المدينة، وقد لا تنطبق على مدن أخرى وعلى وجه الخصوص، إن كل مدينة لها شخصيتها الخاصة في المكان الذي تقع فيه .

مدينة طولكرم تطورت من قرية صغيرة عبر الزمن، وعبر احتلالات متعاقبة، توسعت المدينة حول نفسها ونمت وتوسعت في شكل حلقات تتداخل مع بعضها حول المركز، أي توسع المدينة يبدأ باتجاه الأطراف على شكل دائرة بسبب الضغط الناتج عن استخدام الأراضي في وسط المدينة، والذي يدفع البعض منه إلى الميل نحو غاياته، وتمثّل المنطقة المركز التجاري للمدينة وتتجمع نهايات الشوارع الرئيسية في مركز المدينة، حيث تتركّز مجموعة متنوعة من الأنشطة التجارية والخدمية، بما في ذلك المحال التجارية والمؤسسات المالية والشركات التجارية وعيادات الأطباء ومكاتب المحامين، ومما ميز مركز المدينة هو ارتفاع سعر الأرض الذي يدفع نحو التوسع الرأسي للتنمية المثلى للأراضي، وهذه المنطقة هي أقدم المناطق في المدينة وتسمى النواة.

كما تتميز المنطقة بالتوسع العمراني حول نواتها وشكلت مركزا تجاريا وأسواقا للصناعات الخفيفة نتج عنه تطور المنطقة، مع أن المنطقة تضم المباني القديمة المتدهورة معماريا واجتماعيا (تسكنها طبقات فقيرة)، فهي تضم أبنية عالية تشغلها الدوائر الحكومية والمؤسسات التجارية والاجتماعية ، وفي المدن الحديثة تتغير العديد من التطورات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، لذلك ليس من الضروري أن تتوسع المدن بنفس معدل النمو من جميع الجهات، ولكل مدينة تنميتها الطبيعية والاجتماعية الخاصة بها، والتي لا يمكن تطبيقها على مدينة أخرى، من حيث طرق النقل، والنمو السكاني، والحركة عالية السرعة، والتغيرات في وظيفة المدينة ومساحتها المكانية، والتنمية التي قد تحدث في مستقبل المدينة.

المراجع

أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة بالعاصمة القاهرة، (1990) إعداد: مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، ومركز إحياء تراث العمارة الإسلامية، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، مكة المكرمة.

بدير، احمد محمود. (1964). *مدينة طولكرم*، دراسة اقليمية، مشروع تخرج، جامعة دمشق.

البرقاوي، خليل حسين. (1994). *طولكرم مدينة لها تاريخ*، المؤلف، طولكرم.

التميمي، محمد رفيق والكاتب، محمد بهجت. (2000). *ولاية بيروت، الجزء الاول، لواء نابلس*، دراسة وتحقيق: زهير عبد اللطيف غنايم ومحمد عبد الكريم محافظة، عمان. الشركة الجديدة للطباعة والتجليد، عمان.

جبارة، عبد الخالق. (2019). *بحث مقدم لبلدية طولكرم*، بلدية طولكرم، طولكرم.

جواد، سلام عبد الحسين. (2011). التغير في مراكز المدن التاريخية، *مجلة المخطط للتنمية*، بغداد، (24).

الحنبلي، مسرة شاهر بكر. (2005). *التخطيط واستراتيجيات إعادة إعمار وتطوير الوسط التاريخي لمدينة نابلس، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية*، فلسطين.

حيدر، فاروق عباس وحيدر، عمر فاروق. (1994). *تخطيط المدن والقرى*، منشأة المعارف، الإسكندرية.

السباعي، محمد نبيل عبد الصادق. (2022). استراتيجية تطوير واعادة تاهيل القاهرة التاريخية، *مجلة البحوث الهندسية، جامعة حلوان*، مصر، (175)، 167- 185.

العشاوي، عبد الحكيم ناصر والعمري، حسن عبد الله. (2022). التنمية المستدامة للتراث العمراني في مركز مدينة ابها التاريخي، *مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، جامعة الملك خالد*، السعودية، (22)، 569.

المجلة المعمارية العربية. (1988). كلية الهندسة المعمارية، جامعة بيروت العربية، بيروت، لبنان.

References:

Al-Ashawi, Abdel Hakim Nasser and Al-Omari, Hassan Abdullah. (2022). Sustainable Development of Urban Heritage in the Historical Center of Abha, *Journal of Educational Sciences and Humanities*, King Khalid University, Saudi Arabia, (22), 569.

Al-Barqawi, Khalil Hussein. (1994). Tulkarm, a city with a history, author, Tulkarm.

Al-Hanbali, Massara Shahir Bakr. (2005). *Planning and Strategies for the Reconstruction and Development of the Historical Center of Nablus*, Master's Thesis, An-Najah National University, Palestine.

Al-Sibai, Mohamed Nabil Abdel Sadiq. (2022). Strategy for the Development and Rehabilitation of Historic Cairo, *Journal of Engineering Research*, Helwan University, Egypt, (175), 167-185.

Al-Tamimi, Muhammad Rafiq and the writer, Muhammad Bahgat. (2000). Beirut Governorate, Part One*, Nablus District,* Study and Investigation: Zuhair Abdel Latif Ghnayem and Muhammad Abdel Karim Governorate, Amman. New Printing & Binding Company, Amman.

Arab Architectural Magazine. (1988). Faculty of Architectural Engineering, Beirut Arab University, Beirut, Lebanon.

Bdeir, Ahmed Mahmoud. (1964). *Tulkarm City*, Regional Study, Graduation Project, Damascus University.

Haidar, Farouk Abbas and Haidar, Omar Farouk. (1994). *Planning of Cities and Villages*, Ma'arif Facility, Alexandria.

Jabara, Abdel Khaleq. (2019). *Research presented to Tulkarm Municipality*, Tulkarem Municipality, Tulkarem.

Jawad, Salam Abdel Hussein. (2011). Change in Historic City Centers, *Al-Planned Journal for Development*, Baghdad, (24).

The Foundations of Architectural Design and Urban Planning in the Different Islamic Eras in the Capital Cairo, (1990) Prepared by: Center for Planning and Architectural Studies, Center for the Revival of the Heritage of Islamic Architecture, Organization of Islamic Capitals and Cities, Makkah Al-Mukarramah.